تفسير سورة الحشر

وهى مدنية

وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير . عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر ؟ قال: أنزلت فى بنى النضير. رواه البخارى ومسلم (١) . وروى البخارى عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر ؟ قال : قُل : سورة النَّضير (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝ ﴾

يخبر تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقدسه ، ويصلى له ويوحده ، كقوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] . وقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : منيع الجناب ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى قدره وشرعه . وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى: يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والزهرى ، وغير واحد: كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة ، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه، فأحل الله بهم بأسه الذى لا يرد، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يُصَدّ ، فأجلاهم النبى ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيّرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالى الشام ، وهى أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر. وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم؛ ولهذا قال: ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

روى أبو داود عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ ، أن

---

(١) البخارى (٤٨٨٢) ومسلم (٣٣١/٣١).

(٢) البخارى (٤٨٨٣).

كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى، ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه، أو لتخرجنه، او لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مُقَاتلتكم ونسبى نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان، اجتمعوا لقتال النبى ﷺ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟».

فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شىء ـ وهى الخلاخيل ـ فلما بلغ كتابهم النبى ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبى ﷺ :اخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً ، حتى نلتقى بمكان المنصف فيسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم ، قال لهم: « إنكم والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه » . فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا الغَد على بنى قريظة بالكتائب، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم . وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم، حتى نزلوا على الجلاء . فجلت بنو النضر ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، أعطاه الله إياها وخصه بها، فقال: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يقول: بغير قتال، فأعطى النبى ﷺ أكثرها للمهاجرين، قسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة، ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقى منها صدقة رسول الله ﷺ التى فى أيدى بنى فاطمة(١) .

ولنذكر ملخص غزوة بنى النضير على وجه الاختصار ، وبالله المستعان :

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازى والسيَر : أنه لما قُتِل أصحابُ بئر معونة ، من أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانوا سبعين ، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمرى ، فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين، لأدينهما » . وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد ، فخرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك الرجلين ،وكانت منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال ابن إسحاق فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير، يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر ، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ؛ للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما ، فيما حدثنى يزيد بن رُومان ، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عَقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم ، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله

(١) أبو داود (٣٠٠٤) ، وصححه الألبانى .

هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم ـ فَمَن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدُهم ، فقال : أنا لذلك ، فصَعَد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى. فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلا مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به،وأمر رسولُ الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطع النخل والتَّحريق فيها . فنادوه:أن يا محمد،قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه،فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبى ابن سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبى قوقل ، وسُوَيد وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتَمَنَّعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرَجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام، وخلّوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث شاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حُنَيف وأبا دُجانة سماك بن خَرَشَة ذكرا فَقْراً ، فأعطاهما رسول الله ﷺ . قال :ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عُمَير بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما هم به من شأنى ». فجعل يامين بن عُمَير لرجل جُعْلاً على أن يقتل عمرو ابن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها [(١)] .

فقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى: بنى النضير ﴿ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ عن ابن عباس قال :من شك فى أن أرض المحشر هاهنا ــ يعنى الشام فليقرأ هذه الآية :﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ ، قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » [(٢)] . وقوله : ﴿ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصَرها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ؛ ولهذا قال: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أى: جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل:٢٦]. وقوله :﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أى: الخوف والهَلَع والجزَع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نُصر بالرعب مسيرةَ شهر ، صلوات الله وسلامه عليه.وقوله :

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٤٥ ، ١٤٦) . (٢) الدر المنثور (٦/ ١٨٧) .

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم ،وتحملها على الإبل ، وكذا قال عروة بن الزبير، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد .وقال مقاتل بن حيان: كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على دَرْب أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال. وكان اليهود إذا علَوا مكاناً أو غلبوا على دَرْب أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء، وهو النفى من ديارهم وأموالهم ، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ، ونحو ذلك ، قاله الزهرى ، عن عُرْوَة ، والسُّدِّى وابن زيد ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة من العذاب فى نار جهنم . قال عروة بن الزبير: ثم كانت وقعة بنى النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ،وأن لهم ما أقلَّت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهى السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قِبَل الشام . قال: والجلاء أنه كُتب عليهم فى آى من التوراة ، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ ، وأنزل الله فيهم: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفى رواية عنه : الفناء .وقال قتادة : الجلاء: خروج الناس من البلد إلى البلد.وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء ، فهذا الجلاء . وقوله: ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ أى: حتم لازم لا بد لهم منه .

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى: إنما فَعلَ الله بهم ذلك وسَلَّط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين فى البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ اللين: نوع من التمر ، وهو جيد .قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبَرْنِىّ من التمر . وقال كثيرون من المفسرين: اللينة : ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير: هو جميع النخل . ونقله عن مجاهد : وهو البُوَيرة أيضاً ؛وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم ،وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم. فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: فبعث بنو النضير(١) يقولون لرسول الله ﷺ : إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، أى : ما قطعتم وما تركتم من الأشجار ، فالجميع بإذن الله ومشيئته وقدرته ورضاه ، وفيه نكاية العدو ، وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم . وقال مجاهد: نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ،وقالوا : إنما هى مغانم المسلمين. فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وإنما قطعه وتركه بإذنه. وروى الإمام أحمد عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قطع نخل بنى النضير وحَرَّق . وأخرجه صاحبا الصحيح بنحوه(٢) ، ولفظ

(١) فى المطبوعة : « بنو قريظة » وهو خطأ .
(٢) المسند (٥٤٣٢) والبخارى (٣٠٢١) ومسلم (١٧٤٦ / ٢٩) .

البخارى عن ابن عمر قال : حارب النضيرُ وقريظة ، فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومَنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحق بالنبى ﷺ فأمّنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بنى حارثة ،وكلّ يهود بالمدينة . ولهما عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرّق نخل بنى النضير وقطع ـ وهى البُوَيرةُ ـ فأنزل الله ،عز وجل فيه : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) . قال ابن إسحاق : كانت وقعة بنى النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة. وحكى البخارى، عن الزهرى ، عن عروة أنه قال : كانت وقعة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر (٢) .

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ ﴾

يقول تعالى مبيناً ما الفيء ؟ وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفيء: كلّ مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير هذه ، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أى:لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ، عز وجل ، فى هذه الآيات ، فقال : ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ أى: من بنى النضير ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يعنى: الإبل ، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى: هو قدير لا يُغالَب ولا يُمانع، بل هو القاهر لكل شىء.

ثم قال: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أى: جميع البلدان التى تُفتَح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير؛ولهذا قال: ﴿ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ إلى آخرها والتى بعدها . فهذه مصارفُ أموال الفيء ووجوهه .

روى الإمام أحمد : عن عمر ، قال: كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ـ وقال مرّة : قوت سنته ـ وما بقى جعله فى الكُرَاع والسلاح فى سبيل الله ، عز وجل . هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم إلا ابن ماجة(٣) .

وقد رويناه مطولاً ،فروى أبو داود عن مالك بن أوس قال: أرسل إلىّ عمر بن الخطاب، حين تعالى النهار ، فجئته فوجدته جالساً على سرير مُفضياً إلى رُماله ، فقال حين دخلت عليه: يا مال ، إنه قد دَفّ أهل أبيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشىء ، فاقسم فيهم . قلت: لو أمرت غيرى

(١) البخارى (٤٨٨٤) ومسلم (٢٩/١٧٤) . (٢) البخارى (٧/٣٢٩ فتح) .
(٣) المسند (١٧١) والبخارى (٤٨٨٥) ومسلم (١٧٥٧ /٤٨) وأبو داود (٢٩٦٥) والترمذى (١٧١٩).

بذلك ؟ فقال: خذه. فجاءه يرفأ، فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ؟ فقال: نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفأ، فقال: يا أمير المؤمنين ، هل لك فى العباس وعلى ؟ قال: نعم. فأذن لهما فدخلا ، فقال العباس: يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا ــ يعنى: علياً ــ فقال بعضهم: أجل يا أمير المؤمنين، اقض بينهما وأرحهما . قال مالك بن أوس: خُيِّل إلىَّ أنهما قَدّما أولئك النفر لذلك . فقال عمر: ابتدا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال: أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ،هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: « لا نُورَث، ما تركنا صدقة »؟. قالوا: نعم . ثم أقبل على علىّ والعباس فقال: أنشدكُما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة»؟. فقالا : نعم . فقال : فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس ، فقال: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا احرزها دونكم،فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة ــ أو: نفقته ونفقة أهله سنة ــ ويجعل ما بقى أسوة المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدكُما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالا : نعم . فلما تُوفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر: « أنا ولىّ رسول الله » ، فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنتَ ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها، فقال أبو بكر: قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلتُ : أنا وَلِىّ رسول الله ﷺ وولىّ أبى بكر ، فَوليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئت أنت وهذا ، وانتما جَميع وأمركما واحد ، فسألتمانيها ، فقلت : إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تليانها بالذى كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها منى على ذلك ، ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك. والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عَجَزتُما عنها فَرُدّاها إلىَّ . أخرجوه (١).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن نبىّ الله ﷺ ، أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات ، أو كما شاء الله ،حتى فُتحَت عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يَرُدّ بعد ذلك ، قال: وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى ﷺ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبى الله ﷺ قد أعطاه أمّ أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألتُ النبى ﷺ فأعطانيهن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوبَ فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يُعطيكَهُنّ وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبى الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول: كلا ،والله . قال: ويقول: « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : « ويقول: لك كذا وكذا » . قال:حتى أعطاها ، حسبت أنه قال : عشرة أمثال أو قال: قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال .رواه البخارى ومسلم (٢) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خُمس الغَنيمة . وقد قدمنا الكلام

(١) أبو داود (٢٩٦٣) والبخارى (٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٧ / ٤٩) والنسائى (٤١٤٨) والترمذى (١٦١٠).
(٢) المسند (٣/٢١٩) والبخارى (٣١٢٨، ٤٠٣٠، ٤١٢٠) ومسلم (١٧٧١/ ٧٠) .

عليها فى سورة « الأنفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد .

وقوله: ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ أى: جعلنا هذه المصارف لمال الفىء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .وروى الإمام أحمد عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال :لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمُتفَلّجات للحُسْن ، المغيرات خلق الله ،عز وجل.قال:فبلغ امرأة فى البيت يقال لها: « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت: بلغنى أنك قلت كيتَ وكيتَ . قال: ما لى لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، وفى كتاب الله . فقالت : إنى لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته . فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه . أما قرأت :﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ ؟ قالت : بلى . قال : فإن النبى ﷺ نهى عنه . قالت: إنى لأظن أهلك يفعلونه . قال: اذهبى فانظرى . فذهبَت فلم تر من حاجتها شيئا ، فجاءت فقالت : ما رأيتُ شيئاً . قال:لو كانت كذلك لم تُجَامعنا .أخرجاه فى الصحيحين[1].وقد ثبت فى الصحيحين أيضاً عن أبى هُرَيرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » [2] .

وروى النسائى عن ابن عُمَر وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدُّبَّاء والحَنْتَم والنَّقير والمزفَّت ، ثم تلا رسول الله ﷺ :﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ .

وقوله : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى : اتقوه فى امتثال أوامره وترك زواجره؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفىء أنهم: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى : هؤلاء الذين صَدّقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حَسَدهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر :وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ،

(١) المسند (٤١٢٩) والبخارى (٤٨٨٧) ومسلم (٢١٢٥ / ١٢٠) .

(٢) البخارى (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧/ ٤١٢) .

obeikandi.com

ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تَبوّؤوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم، وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخارى هاهنا أيضا (١) .

وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ اى : مِنْ كَرَمهم وشرف أنفسهم ، يُحبّون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير ، لقد كَفَونا المَؤنة ، وأشركونا فى المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله! قال: « لا ، ما أثنيتم عليهم ودَعَوتُمُ الله لهم» (٢). وروى البخارى عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى ، فإنه سيصيبكم [بعدى] أثرة » . تفرد به البخارى من هذا الوجه (٣) .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال: قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا. فقالوا : تكفونا المؤنَةَ ونَشرككُم فى الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم (٤) .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾اى:ولا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم فى الذكر والرتبة . قال الحسن البصرى:﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعنى : الحسد . ﴿مِمَّا أُوتُوا ﴾ قال قتادة : يعنى: فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد . ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : كنا جُلوساً مع رسول الله ﷺ ، فقال: « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ». فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد تَعلّق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى. فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى . فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال : إنى لاحيت أبى فاقسمت الا ادخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلتُ . قال: نعم . قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالى، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تَعارّ وتقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبد الله:غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله ، لم يكن بينى وبين أبى غَضَب ولا هَجْر ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرّار : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلعت أنت الثلاث المرار ، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملكَ فأقتدى به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسولُ الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجدُ فى نفسى لاحد من المسلمين غشّا ، ولا احسُد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا تطاق. رواه النسائى وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين(٥) .

---

(١) البخارى (٤٨٨٨) .
(٢) المسند (٣/ ٢٠٠) ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٦١٧) .
(٣) البخارى (٣٧٩٤) وما بين المعقوفتين منه .
(٤) البخارى (٢٣٢٥).
(٥) المسند (٣/ ١٦٦) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٩٩) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ يعنى: ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾: المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم من الأنصار ، فعاتبهم الله فى ذلك، فقال: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، قال: وقال رسول الله: « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ ». قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » . فقالوا : نعم يا رسول الله [١] .

وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يعنى: حاجة ، أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك . وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أفضلُ الصدقة جَهدُ المقلّ »[٢] . وهذا المقام أعلى من حال الذين وَصَفَ اللهُ بقوله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [الإنسان:٨] . وقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة:١٧٧] . فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله [٣] . وهكذا الماء الذى عُرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوجَ ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه احد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم . وروى البخارى : عن أبى هُرَيرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهدُ ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى ﷺ : « ألا رجل يُضَيِّفُ هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا ضَيفُ رسول الله ﷺ لا تَدّخريه شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوتُ الصبية . قال : فإذا أراد الصبيةُ العَشَاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ونَطوى بطوننا الليلة . ففعلَت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : « لقد عجب الله ، عز وجل ــ أو : ضحك ــ من فلان وفلانة » . وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾. وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من طرق وفى رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه [٤].

وقوله: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى :من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . روى أحمد عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ، فإن الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُحَّ ، فإن الشّحَّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سَفَكُوا دماءهم واستَحلُّوا

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٨/٢٨) .

(٢) أحمد (٣/ ٤١١) وقال الالبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٦٦) : « إسناد جيد رجاله ثقات على شرط مسلم » .

(٣) أبو داود (١٦٧٨) ، وصححه الالبانى .

(٤) البخارى (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤ / ١٧٢) والترمذى (٣٣٠٤) والنسائى فى الكبرى (١١٥٨٢) .

محارمهم » . انفرد بإخراجه مسلم (١) . وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظُّلْم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفُحْش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التَّفَحُّشَ ، وإياكم والشُّحَّ ؛ فإنه أهلكَ من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » . رواه أحمد وأبو داود والنسائى (٢) . وعن أبى هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخانُ جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً » (٣).

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾: هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون لهم بإحسان ، كما قال فى آية براءة: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٠] . فالتابعون لهم بإحسان هم : المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية ؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أى: قائلين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أى: بغضاً وحسداً ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافضى الذى يسبّ الصحابة ليس له فى مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ ، فسببتموهم . سمعتُ نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . رواه البغوى (٤) .

ربع ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ۝ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ۝ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبى وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يَعِدُونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ

(١) المسند (٣/ ٣٢٣) ومسلم (٢٥٧٨/ ٥٦) .
(٢) المسند (٦٤٨٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ،وأبو داود (١٦٩٨) والنسائى فى الكبرى (١١٨٣).
(٣) النسائى (٣١٠٩) ، وصححه الألبانى .
(٤) البغوى فى معالم التنزيل (٨/ ٨٠) ورواه مسلم (٣٠٢٢/ ١٥) بنحوه.

أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذى قالوه ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ، ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها . ثم قال تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى :يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء:٧٧] ؛ ولهذا قال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

ثم قال: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ يعنى: أنهم من جُبنهم وهَلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة ، بل إما فى حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال: ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾أى: عداوتهم بينهم شديدة ، كما قال : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام:٦٥] ؛ ولهذا قال :﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أى: تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف .قال إبراهيم النخعى : يعنى : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال :﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد ، والسدى، ومقاتل بن حيان : يعنى: كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ يعنى : يهود بنى قينقاع . وكذا قال قتادة، وابن إسحاق . وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله :﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ يعنى : مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ثم لما حقت الحقائق وجَدَّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان ــ والعياذ بالله ــ الكفر، فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل، وقال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقوله: ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ﴾ اى :فكانت عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له، مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ، ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ اى : جزاء كل ظالم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

روى الإمام أحمد ، عن جرير ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حُفَاة عُراة مُجتَابى النمار ــ أو : العَبَاء ــ مُتَقَلِّدى السيوف عامتهم من مُضَر ، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية [النساء:١] . وقرأ الآية التى فى الحشر : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ، تَصَدَّقَ رجل من دينارِه ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بُرِّه ، من صاع تمره ــ حتى قال ــ : ولو بشق تمرة » . قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرة كادت كفه تَعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مُذْهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَن

سَنَّ في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن يَنقُص من أجورهم شيء، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وِزرُها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء ». انفرد بإخراجه مسلم(١) .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أمر بتقواه ، وهو يشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر . وقوله: ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ،﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: تأكيد ثان ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

وقوله: ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أي : لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل الصالح الذي ينفعكم في معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ؛ ولهذا قال:﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي : الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون:٩] . وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن نعيم بن نَمحة قال : كان في خطبة أبي بكر الصديق : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله، عز وجل، فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ، عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم:﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيؤوا منه ليوم ظلمة ، واستضيؤوا بسنائه وبيانه ، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال :﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء:٩٠] ، لا خير في قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم (٢) .هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات.

وقوله: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله يوم القيامة،كما قال: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر:٥٨] . وقال:﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨] ؟ في آيات أخر دالات على أن الله تعالى ، يكرم الأبرار ، ويهين الفجار؛ ولهذا قال هاهنا :﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أي: الناجون المسلمون من عذاب الله، عز وجل.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ

(١) المسند (٤/٣٥٨) ومسلم (١٠١٧ / ٦٩) .
(٢) الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٦٠) .

obeikandl.com

ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته،لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ،لخشع وتصدع من خوف الله، عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر الا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. قال ابن عباس في قوله : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ إلى آخرها ، يقول: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حمّلته إياه ، لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآنُ أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون . وكذا قال قتادة ، وابن جرير . وقد ثبت في الحديث المتواتر : أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنّ الجذع [(١)] وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يُسكَّن، لما كان يُسمَع من الذكر والوحي عنده . ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده : «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع ». وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت وتصدعت من خشيته ، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ﴾ الآية [الرعد:٣١] . وقد تقدم أن معنى ذلك : أي لكان هذا القرآن . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة:٧٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ : أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أي : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء في الأرض ، ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير ، حتى الذر في الظلمات . وقوله : ﴿ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا. والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، وقال: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:٥٤] ، وقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨] ،ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ﴾ أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ قال وهب بن منبه: أي الطاهر.وقال مجاهد، وقتادة : أي المبارك. وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام﴿ السَّلَامُ﴾ أي : من جميع العيوب والنقائص ؛ لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ قال ابن عباس: أمن

(١)رواه البخاري (٣٥٨٣ ـ ٣٥٨٥) .

خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمَّن بقوله: إنه حق. وقال ابن زيد : صَدّق عبادَه المؤمنين فى إيمانهم به ﴿ الْمُهَيْمِنُ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أى: الشاهد على خلقه بأعمالهم ، يعنى: هو رقيب عليهم ، كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج:٩] ، وقوله: ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس:٤٦] ،وقوله : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الآية [الرعد:٣٣] .

وقوله: ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى: الذى قد عزّ كل شىء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه؛ولهذا قال: ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ اى: الذى لا تليق الجَبْرية إلا له،ولا التكبر إلا لعظمته، كما فى الصحيح: « العَظَمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما عَذَّبته »[1] . وقال قتادة : الجبار : الذى جَبَر خلقه على ما يشاء .وقال ابن جرير : الجبار : المصلحُ أمورَ خلقه ، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم .وقال قتادة : المتكبر : يعنى عن كل سوء .ثم قال: ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ الخلق: التقدير ، والبَراء : هو الفرى ، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ، عز وجل . ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فَرَى ، أى : قطع على ما قدره بحسب ما يريده . وقوله تعالى: ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد، والصورة التى يختار .كقوله: ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٨] ولهذا قال: ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ أى : الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها .

وقوله : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾: قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجة له ، عن أبى هريرة أيضا ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر» ــ واللفظ للترمذى ــ : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح، العليم ، القابض، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل، القوى، المتين ، الولى ، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . وسياق ابن ماجة بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته هنا[2] .

---

(١) مسلم (٢٦٢٠/١٣٦) .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (١٨٠) من سورة الأعراف.

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ [الإسراء:٤٤] . وقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى: فلا يرام جنَابه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى شرعه وقدره .

obeikandl.com